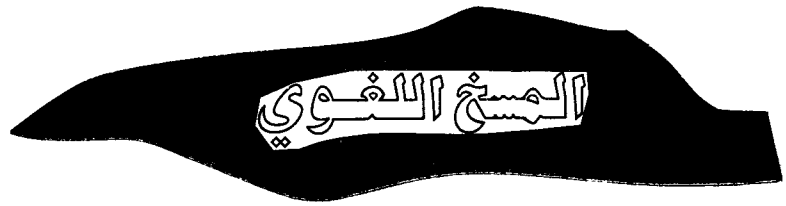

المسخ اللغوي

من «سوء التّفاهم» إلى «سوء الخلق»

شوقي بغدادي

يختلف المتجادلون حول موضوع من الموضوعات إلى درجة الغضب وتبادل الاتهامات والإدانات، ثمّ يكتشفون أنّ الاختلاف في وجهات النّظر لم يكن خطيراً، أو أنّه غير موجود أصلاً، وأنّ المشكلة كلّها ناجمة عمّا يمكن تسميته بـ «سوء التّفاهم».

وسوف يقول أحدهم فيما بعد: «يا أخي.. أنت بالأصل لم تتكلّم بلغة مفهومة». فيجيبه الآخر: «وأنا أيضاً لم أفهم عليك..».

وليس لهذا معنى سوى أنّ سوء استخدام اللّغة هو الّذي أغلق على المتحاورين بابَ التّواصل وأوصلهم إلى هذه الدّرجة من التّنازع والتّعارض.

يحدث هذا لديْنا كثيراً، غير أنّ مضاعفاته الرّديئة تبقىٰ محصورةً في إطار محدود من المتنازعين مادام الأمر قد اقتصر على حوارٍ مُغلق عليهم.

ولكنّ المشكلة تبدو أكثر استعصاءً وخطورة حين تواجهنا بشكل نصٍّ مكتوب ومنشور. ذلك لأنّ عدد قرّائه غير محدود من جهة؛ ولأنّه، من جهة أخرى، غيرُ قابلٍ للتسوية السّريعة لأنّ طرفَي المسألة المتنازع عليها ـ المرسل والمتلقّي ـ متباعدان على الأغلب في الزّمان والمكان.

صياغة غير عربيّة

نواجه عادة في مثل هذا النّصّ نوعاً من الكتابة المعقّدة الغامضة، لا بسبب مصطلحاتها الغريبة وإنّما بسبب الصياغة اللّغوية ذاتها المؤلّفة من جمل وتراكيب مطوّلة، والحافلة بالضمائر غير المسندةِ بدقّة إلى أصحابها، والمتداخلة بحيث لا تعرف أوّل الجملة من آخرها... فلا تفهم تماماً، وتضطرّ إلى إعادة القراءة مع التأمّل والتدبّر والتّمحيص لطبيعة التّراكيب اللّغوية وربط الضّمائر بأصحابها والفصل أو الوصل بين الجُمَل حسب أصول البيان العريقة... فيخيّل لك أنّك تفهم وما أنت بفاهم حقّاً، وإنّما أنت تُمسك بطرف الخيط. وما تكاد تسحب إليك المعنى المقصود حتّى يدهشك أنّه معنى في غاية السّهولة ولا يحتاج إلى كلّ هذه الغابة من الكلام المداور والمراوغ المتشابك.

ولكم سألتُ نفسي لماذا يحدث «سوء التّفاهم» هذا ويتكرّر حدوثه، بل تتفاقم أعراضُه المَرَضيّة ومضاعفاتها الّتي تدفع بالسؤال الثّقافي كلّه إلى طريقٍ مسدود تختنق فيه الطّموحاتُ الحضاريّة وتنكفئ على ذاتها أو على مثيلاتها كي تتخاصم وتتنافر، وترتفع الشّكوى من تراجع جاذبية القراءة أو انخفاض مستوىٰ الثّقافة أو طغيان السّياسي على الثّقافي... إلى آخر تلك الشّكاوىٰ الّتي تجسّد المشهدَ الثّقافيّ العربي العام بكلّ ما فيه من ركاكة واختناقات.

لقد غدت اللّغة العربية عند البعض مجرّد «فولكلور»!

ولا شَكّ أن تقصّي جذور المشكلة يقودنا إلى أن نضع يدنا على عواملَ كثيرة بالغة التّعقيد. غير أنّني أعتقد أنّ سوء استخدام الصّياغة العربيّة عبر تغريبها وتهجينها المبالغ فيهما ـ تأثراً بالأساليب الأجنبيّة ـ يقف في طليعة هذه العوامل. وهذا ما نركّز عليه في هذه الدّراسة المحدودة.

مثال لا على التّعيين

لنأخذ المثالَ لا علىٰ التّعيين؛ فالأمثلة المماثلة له أكثر من أن تُحصى. وهو نصٌّ قرأته مؤخّراً للكاتب الجزائري «بختي بن عودة»، منشور في مطلع العدد السّادس من مجلّة التبيين النّاطقة باسم التجمّع الثّقافي الكبير في العاصمة الجزائريّة الّذي أطلق على نفسه اسم «الجاحظيّة».. وعنوان تلك المقالة هو «انسحاب الكتابة». وهاكم مقطعاً من مقدّمتها لابدّ من قراءته بإمعان حتّى تشاركوني همّي الحقيقي وتقارنوه فيما بعد بالصياغة الجديدة الّتي وضعتُها له، كمن يترجم من لغة غير مفهومة إلى أخرى مفهومة. يقول النصّ بالحرف الواحد:

> لا أقصد بالكتابة تلك التجلّية اللّسانيّة الظّاهراتيّة والّتي عادةً ما تتأسّس حول سلطة الدّليل أو العلامة، وإنّما ذلك الوجود الفاعل الحيّ للوعي من خلال تجربة إبداعية نقديّة لها شرائطها السّوسيو ـ ثقافيّة من جدلِ القراءة كتقليد وكحاجة معرفيّة وحضاريّة تكشف إمّا عن هزالٍ فكريّ أو عن ثراء فكريّ ولهذا الاختيار بعض العلل والمنخرطة في نسب التّجربة (نقد صحفي وإبداع) وفي استقصاء محسوب انطلاقاً من مجاورةِ فعاليات لها تباين الحساسيات ولها أيضاً تفارقاتها.

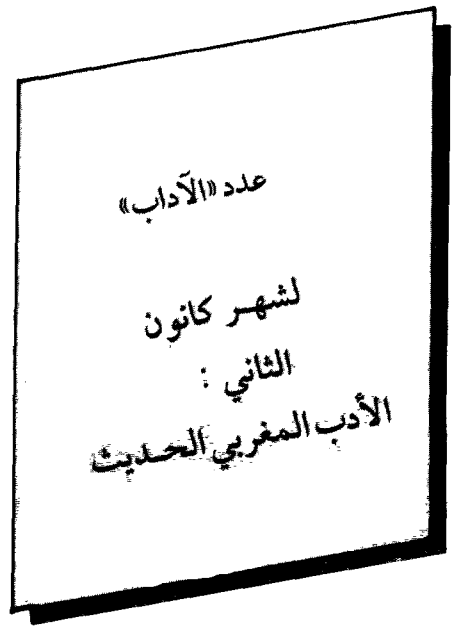

ولعلّ مدخلاً إشارياً لا ينتمي إلى مدوّنةٍ وافيةٍ يقلّصُ من آمالِ ورقةٍ محمولة على جدّية وخطورة وتعقّد مسألةٍ أساسيّة لها ما يبرّرها وسط نقاش لانهائي حول اللّغة والتّربية والبحث. وهنا فقط تنتفي كلُّ قطعة لا تتوخّىٰ الإسهام في ترشيد بلاغة غير واضحة الأطراف، بل ولا تعثر على سندٍ نظريّ يخترق المسألة ولنوعيةِ الحدودِ ههنا وشرعيّتها..

هل فهمتم شيئاً؟. أعيدوا القراءة إذن، فلقد قرأتُ أنا هذا المقطع أكثر من مرّة حتّى فهمت. ثمّ خطرَ لي أن أقدّم ما فهمته بصياغتي الخاصة الأسهل. وأمّا إذا فهمتهم المقصودَ من القراءة الأولى فلا مشكة لديكم إذن، وإنّما المشكلة مشكلتي فقط، وعندئذٍ لا حاجة بكم إلى متابعة هذه السّطور.

مناقشة الصّياغة

حسناً.. إذا قرّرتم متابعتي فلنناقشْ إذن معاً صعوبات هذه الصّياغة.

نكتشف بعد التفحّص الدّؤوب أنّ المقطع الّذي اخترناه ليس أكثر من مقدّمة بسيطة هدفها طرحٌ أوّليّ للمشكلة الثّقافية المقصودة وهي: صعوبة الإحاطة بالظاهرة الكتابية الّتي تشكو من الانحسار أو «الانسحاب» ـ كما يقول الكاتب ـ ؛ وبقية المقالة ليست أكثر من معالجة لهذه الظّاهرة: أسبابها، وعوارضها، واقتراحات لمعالجتها. فلماذا إذن استخدام ذلك الأسلوب من الصّياغة اللّغوية المتراكبة المتداخلة الحافلة بالمصطلحات والإشارات غير الدّقيقة أو غير الواضحة لجمهور القرّاء الواسع؟ وإليكم بعضاً من الملاحظات:

أ ـ «الظّاهراتيّة» مثلاً مُصطلح مترجم مُوَلَّد يقصد به فلسفة حديثة معاصرة قائمة بذاتها، ولكنها غير متداولة ومفهومة تماماً إلاّ في حدود أهل الاختصاص والمتابعين من المثقّفين؛ وهذا ما دفع كاتباً عربيّاً مثل الرّوائي الأردني المنشأ «غالب هلسا» إلى تقديم شرح لها في مقدّمة ترجمته لكتاب الباحث الفرنسي الكبير «غاستون باشلار» المسمّى **جماليات المكان**. فكيف يمكن أن يفهم القارئ العاديُّ المقصودَ من هذا المصطلح الوارد في السّطر الأوّل من النصّ دون أيّ شرح في الهامش؟ وهذا ما دَفَعني إلى الاستغناء عنه في صياغتي الخاصّة للنصّ ـ الواردة بعد هذه المناقشة ـ ووضْع ما يفيد معناه وهو: «الظّاهرة اللّغوية المحكومة بالمعنى القاموسي وحده..».

٢ ـ في قوله: «سلطة الدّليل» تعبير مجازي يستخدم مصطلحاً مترجماً غيرَ دقيق، أو غير متداول على الأقلّ وهو لفظة «الدّليل». وهي ترجمة للفظة «guide» أو «indicateur» الفرنسيّة... لا للمفردة المعتمدة في علم الألسنيات «Signifiant» والمتّفق على ترجمتها إلى لفظة «دالّ» لا «دليل» كما صنع الكاتب الجزائري. وهذا ما يزيد في التباس المعنى وصعوبة الوصول إليه.

إنّنا لا ننقل عن الغربيين أفكارهم فحسب، بل ننقل أيضاً أساليبهم اللّغوية!

٣ ـ ثمّة تعبير آخر هو «جَدَل القراءة»، وهو تعبير غامض بالشكل الوارد في النّصّ ولا يفهمه إلاّ المتابعون لقضايا النّقد الحديث المعتمدة على علم الألسنيات. ومعناه كما أتصوّر هو أنّ القارئ «المتلقّي» له شروطه الخاصة الّتي توجّهه أثناء عملية التلقّي، ولابدّ من أخذها بعين الاعتبار ونحن ندرس نصّ الكاتب «المرسِل» كي نحيط حقاً بأبعاد عملية الكتابة الإبداعيّة.. وقولنا «جدل القراءة» لا يكفي لأداء هذا المعنىٰ، بل لا داعي له أصلاً؛ ذلك لأنّ بقيّة المقالة ليست محتاجة إلى هذا التّعبير إلاّ في حدود ثقافة القارئ العادي، وهو المتلقّي الأهمّ في مثل هذا الطّرح لقضيّة تتعلّق بالثّقافة الواسعة الانتشار «الجماهيريّة» لا ثقافة «النّخبة».

٤ ـ كلّ هذه العبارة القائلة: «تكشف إمّا عن هزال فكريّ أو ثراء فكري» هي من تحصيل الحاصل ـ كما يقولون ـ. ومن الممكن حذفها دون أن يتأثّر النّصّ إطلاقاً. ذلك لأنّ كلّ دراسة تكشف عن حالة من اثنتين: «هزال فكريّ» أو «ثراء فكريّ»، وليس هناك حالة ثالثة وسط يمكن تبنّيها في مثل هذه الأبحاث. ومادام الأمر كذلك فلا داعي لأن نقول: «إمّا عن.. وإمّا عن..» لأنّ الولد الصّغير يستطيع مشيراً إلى الاختلاف في النّوع بين الذّكر والأنثىٰ مثلاً أن يقول: «إمّا أن يكون رجلاً أو امرأة..» ـ وهي معلومة ساذجة كما هو واضح لا تزيدنا علماً في أمرٍ هامّ..

٥ ـ كلّ العبارة التي تبدأ من عند قوله: «ولهذا الاختيار بعض العلل..» إلى نهاية العبارة عند قوله: «تفارقاتها»، كلّ هذه العبارة تركيب مُطَوَّل متداخل غامضٌ جدّاً. وإلاّ فأي اختيار هو المشار إليه

هنا؟ إذا كان المقصود هو المعنى الآخر للكتابة بما هي «وجود فاعل للوعي» فإنّ إضافة تعبير «بعض العلل والمنخرطة في نسب التّجربة.. إلخ» يعقّد المعنى... وهو أبسط من هذا بكثير، إذ كلّ ما يريد الكاتب قوله هو أن تحديد معنى «الكتابة» هذا مرتبط بمحاذير حسّاسة سرعان ما تخلّ بعملية النّقد إذا لم ينتبه إليها الباحث كلّ الانتباه.

٦ ـ يبدو أن لا فارق واضحاً في المعنى بين قوله: «تباين الحساسيّات» و«تفارقاتها» مع أنّ السّياق يوحي بوجود هذا الفارق. والأغلب أنّ كلمة «تفارقات» هي ترجمة غير موفّقة لمصطلح فرنسي، ربّما كان هو كلمة «Déviation» لا «Séparation»؛ وعندئذٍ كان يجب اختيارترجمة أخرى غير «تفارقات» لأنّ المقصود هو «الانحرافات» الّتي تطرأ على الكتابة لا على «انقطاعاتها» أو «تفارقاتها» كما يقول الكاتب الجزائري.

٧ ـ وفي قوله: «ولعلّ مدخلاً إشاريّاً لا ينتمي إلى مدوّنةٍ وافية.. إلخ..» تركيب مهزوز. فالمدخل الإشاري عدا عن كونه مصطلحاً غامضاً ـ إذْ ما معنى «إشاري» هنا؟ ـ فهو يزداد اهتزازاً وبالتالي غموضاً حين يقول: «لا ينتمي إلى مدوّنةٍ وافية»؛ ففعل «ينتمي» ليس هو الفعل الأنسب للمعنى؛ و«المدوّنة الوافية» ليس هو التّعبير الأنسب، مادام المقصود بسيطاً إذ لا يتجاوز القصد بأنّه من الضّروري إيفاء البحث حقّه من التقصّي والتدقيق، وأنّه لا يجوز الاكتفاء بإشارات بسيطة إليه.

تأثير اللّغة الأجنبيّة

وهكذا لو تابعنا المناقشة لوجدنا أنّ النصّ بكامله أقرب ما يكون إلى النّصوص المترجمة بشكلٍ حرفيّ دون مراعاة أصول بيان اللّغة المنقول إليها.

فاللّغة العربيّة تنفر مثلاً من الجُمَل والتّراكيب المطوّلة وتميل إلى التّكثيف، والتّركيز، وحسن استخدام الفصل والوصل بين الجمل، وعدم استخدام أسماء الإشارة والضّمائر إلاّ مرتبطةً بكلّ وضوح بمراجعها... إلى غير ذلك من أصول البيان العربي السّليم والجميل. وأمّا الكتابة بذلك الشّكل فهي صياغة فرنسيّة أكثر منها عربيّة؛ ذلك لأنّ ثقافة الكاتب الجزائري ـ صاحب النّصّ ـ الأجنبيّة فرنسيّة كما يبدو؛ ومعرفتي بالفرنسيّة تساعدني على تلمّس هذا التّأثر العميق بالصياغة الفرنسيّة الّتي تتميّز بالعبارات الطّويلة والأسلوب المداور للمعنى واستخدام الضّمير قبل ذكر صاحبه، أو تأخير ذكر الفاعل بعيداً عن فعله، أو الخبر عن المبتدأ واستعمال مصطلحات خاصّة باللّغة الأجنبيّة مترجمة إلى العربيّة حسب اجتهاد الكاتب ودون أي إجماع عليها.

فلأقدّم إذن صياغتي اللّغوية الأسهل لما أراد الكاتب الجزائري «الحسن النيّة» قوله دون معاظلة، ولا تطويل ولا تداخل، فنقول:

«لا أقصد بالكتابة تلك الظّاهرة اللّغوية المحكومة بالمعنى القاموسيّ وحده، وإنّما تجربة الوعي البشري الفعّالة وقد تداخلت فيها مؤثّرات متوافقة أو متعارضة بين أصول للبيان كتقاليد ثابتة، وطرائق مبتكرة في استخدامها علامةً على تميّز الكاتب.. إضافة إلى استجابات القارئ الممكنة لها دليلاً على تأثير مستويات القرّاء الشّديدة التنوّع.

والاكتفاء بإشارات سريعة إلى مثل هذه المسألة البالغة التّقليد لا يفي بالغرض المقصود الهادف أصلاً إلى الإمساك بأطراف بلاغة غير واضحة المعالم ولا تساندها نظرية متكاملة».

ومن الواضح أنّني غيّرت الصّياغة إلى صياغةٍ أخرىٰ مختلفة تماماً ولكنها تؤدّي المعاني ذاتها بسهولة أبلغ وكلمات أقلّ. فقد استخدمتُ على سبيل المثال أربعاً وسبعين /٧٤/ مفردة، في حين استخدم الكاتب الجزائري مئةً وستّاً وعشرين /١٢٦/ مفردة. ومع ذلك جاء النصّ الأقصر أبسط وأوضح من النصّ الأطول.

ما هي المشكلة إذن؟

يمكن تلخيص المشكلة بتعبير واحد هو: «سوء التّفاهم». غير أنّ هذا التّعبير يبسّط الأمور كثيراً ولا ينفذ بنا إلى لبّ العقدة.

المشكلة في تصوّرنا ناشئة عن الانبهار بالتجربة الغربيّة في البحث والدّراسة والنّقد.. إلى درجة نقلها كما هي مضموناً وشكلاً. إنّنا لا ننقل عنهم أفكارهم فحسب، بل ننقل أيضاً الأساليب اللّغوية التي يعبّرون بها عن تلك الأفكار... سواءٌ أحصل ذلك لأنّنا مدفوعون بالتبعية الكاملة، أم بسبب النّقص في قدراتنا اللّغوية الخاصّة بنا كأمّة متميّزة في ذوقها البياني وطرائقها اللّغوية. فالمشكلة هي، بتعبير آخر، أحد المضاعفات المَرَضيّة للمشكلة الأساسيّة وهي قضيّة التّبعيّة: تبعية الأطراف (الدّول النّامية أو المتخلّفة) للمركز (الدّول الصناعية الكبرىٰ) ولكن.. شيئاً فشيئاً تُنسىٰ المشكلة الأساسيّة كي تحلّ محلّها مشكلةُ اللّغة ذاتها كأداة في التّواصل والتّفكير وتخزين المعلومات وتوظيفها. إنّ اللّغة أداة اخترعها الإنسان للتعبير عن حاجاته المادّية والمعنوية، غير أنّها لا تبقى مجرّد أداة خاضعة له، وإنّما تكتسب مع الزّمن قدرات خاصّة بها وقوانين داخليّة تتميّز بها، فتتحوّل من أداة للاستعمال إلى أداة للتأثير في الإنسان الّذي اخترعها، إذْ تسهم في تغييره وتكوينه وخلق عادات جديدة له في السّلوك والتّفكير. وبمعنى آخر فإنّ اللّغة قادرة مع الزّمن على خلق إنسان مختلف تماماً عن الإنسان الّذي كان يجهل هذه اللّغة. إنّها لا تكتفي بإثراء أدواته في الكلام فحسب، بل تعمد إلى هدم أدواته

القديمة، ثمّ إلى أزاحة أنقاضها جانباً وفتح مَجارٍ جديدة لتيّار الوعي واللاّوعي. وهكذا يفقد الإنسان العربي أو الأفريقي مثلاً ملكاته الخاصّة بلغته القوميّة كي يكتسب ملكاتٍ أخرى هي ملك اللّغة الجديدة الّتي انتقل إليها.

ومن البدهي هنا أنّنا لا نقصد انتقاد التّعامل مع اللّغات الأجنبيّة بالمطلق، وإنّما المقصود هو انتقاد المبالغة في هذا التّعامل الّذي يصل ببعضهم إلى حدّ اتخاذ اللّغة الأجنبيّة أداته الأساسيّة وشبه الوحيدة أحياناً في حديثهم اليومي وفي قراءاتهم وكتاباتهم، حتّى لكأنّ لغتهم القوميّة بالنسبة لهم لم تعد أكثر من «فولكلور» يطلّون به متفرّجين من حين لآخر.

والمفارقة المؤلمة في هذه الظّاهرة ليست في عملية التغيّر الّتي حصلت، وإنّما في عدم اكتمالها؛ ذلك أنّ الشّخص الّذي تغيّر وانتقل وجدانيّاً إلى الضّفّة الأخرى، لن يُسمح له ـ إلاّ نادراً جدّاً ـ بأن يمتلك الحقوق الّتي ترتبط عادة بأدواته الجديدة في التّعبير تكريساً لهويّة جديدة متكاملة في واجباتها وحقوقها.

إنّهم يسمحون لنا بدراسة لغتهم، ولكنهم لا يسمحون على الإطلاق بأن نتمتّع بالامتيازات الّتي ينعم بها أصحابُ اللّغة الأصليون. وهم يسمحون لنا بدراسة لغاتهم لا لأنّهم يرغبون في «تحضيرنا» حقاً، وإنّما لأنّهم يدركون جيّداً أنّ الانتقال في التّواصل والتّفاهم من لغةٍ ما إلى لغتهم يحمل فيما يحمل إمكانات كبرى لتسهيل عملية التدجين والتّبعية لحسابهم؛ وهذا لا يعني في النّهاية سوى ربط الحصان جيّداً إلى العربة لا (كما يتوهّم بعضهم) رفع مستواه وتحرير ملكاته ثمّ إطلاقه في المرعىٰ الجديد حرّاً طليقاً مستكملاً حقوقه جمعاء.

كيف تغدو اللّغة القوميّة أداةً للتشويش على تواصل المتكلمين بها؟

وهكذا تغدو اللّغة القوميّة يوماً بعد يوم أداةً لتعميق «سوء التّفاهم» والتّشويش على التّواصل بين المتكلمين بها، وأداةً لفقدان ثقتهم بعضهم ببعض وتكريس التخلّف، والتّجسيد النّهائي لفكرة أنّ الخلاص لن يتحقّق إلاّ باستخدام لغةٍ أخرى... وبالتحوّل إلى موظّفين بأجور رخيصة لدى سادةٍ محتاجين إلى خَدَمٍ وأتباع لا إلى إخوة أو أصدقاء أنداد.

وضروريّ هنا كي لا نظلم الكاتب الجزائري «بختي بن عودة» ـ فهو ليس أكثر من مثال أو شاهد على ظاهرة عامة ـ، أن نؤكّد أنّنا لا نتحدّث عن مقالته كقيمة فكرية (فهي مقالة ذات مضمون هامّ، وقد كانت ذكيّة جدّاً في رصدها الظّاهرة الّتي تعالجها)، وإنّما حديثنا ينصبّ أساساً على الشّكل اللّغوي وحده. فالمقالة مثل كثير ممّا يكتبه النّاشئون في أحضان اللّغة الأجنبيّة والمتأثّرون بهم تشكو من هذا الانحراف أو المَيَلان في استخدام اللّغة القوميّة والابتعاد بها عن أصولها البيانيّة. وهذا ما يؤدّي إلى حالةٍ من الالتباس وسوء التّفاهم، وبالتالي إلى حالة من فقدان الجاذبية فيما يقرأه النّاس... وهذه هي أصل العلّة في «انسحاب الكتابة» بكلّ أنواعها كما يقول الكاتب نفسه.

دمشق